المدنية المغربية

بين المدنيات الإسلامية

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد الثاني - الخميس 13 صفر الخير عام 1357 الموافق 14 ابريل سنة 1938

لعب المغرب دورا هاما في تطورات الحضارة الإسلامية منذ بزغ فجر الإسلام وسرى في شرايين الأمم التي اعتنقته روح من النشاط والحرية لم تعهده، فلم تدرك في أول مرحلة من حياتها التوحيدية الجديدة أى تأثير لهذا الانبعاث الروحي الذي سيغمر نفس الفرد ليتجه به نحو الفضيلة ويصوب مرامي الأمة نحو هدف اجتماعي عظيم ، فتصبح الجماعات تقدر حقوق الأفراد، والأفراد يحترمون حقوق الجماعات، وتلك خطوة لها خطورتها لا على الأمم الإسلامية دون غيرها، بل على جميع أمم الأرض، فإن الإنسانية جمعاء تأثرت إلى حد ما بمثل الإسلام وتعاليمه الاجتماعية.

لعب المغرب دورا هاما في صرح مدنية الإسلام كما لعبت أمم أخرى أدوارا هامة بدأنا نلمس اليوم أثرها، وبدأ التنقيب والمطبعة يزيحان عن أدوار تلك الأمم كل ما علقت به من أدران التأخر ومصائب الجهالة. فإذا نحن أمام عصر من الحضارة لتلك الأمم زاهر وأمام عناصر للتمدين قوية تحمل المشعال في ظلمات القرون وتخترق حجب الأوهام والضلالات لتقرب الحقيقة وتسبر غور الحياة من تجربة ومشاهدة وتقفز بالفكر الإنساني خطوة جديدة.

وتلك حضارات تلك الأمم لا يميز بعضها عن بعض نظرا لارتباط عناصرها وتلاحم تفاعيلها إلا بمميزات دقيقة لا تدرك لأول وهلة ولا يتاح لكل فرد أن يلاحظها بديهة؛ فهناك مدنية دمشق، وهناك مدنية بغداد، ومدنية القاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة، وأخيرا هناك مدنية اسطنبول.

عصور تتلو عصورا وأمم تخلف أمما وعواصم تحتل مكان عواصم. فما هو دور المغرب في تلك العصور؟ وما نصيبه في تكوين هذا الماضي الإسلامي الحافل؟

لا نعلم من بين الأمم الإسلامية من قوى على عوامل الدهر رغم انقلاباته الجارفة، فلم يخضع لمسيطر خارجي، بل حافظ أزيد من اثنى عشر قرنا على كيانه، وناضل عن وجوده في سواد الليل الذي كانت كل أمم الأرض، وأمم الإسلام خاصة، تتخبط فيه، حائرة في سيرها، واجمة في تلمس مصدر قوتها، ذاهلة عن مثلها، كالمغرب، هذه البلاد الواسعة الأطراف، المعتدلة الهواء، ذات المناظر الخلابة والثروة الطبيعية.

فقد توالت دول ودول على مسرحه، وكلها لم تستمد قوتها إلا من قوات البلاد العامة، وجميعها استوحت العقلية المغربية المسلمة، وكونت من إنتاجها المادي والفكري والعاطفي ماضي المغرب ومدنية المغرب، تلك المدنية التي إذا أردنا مستقبلا ثابت الدعائم لا غنى لنا عن اكتشافها مهما حملنا هذا الاكتشاف من عناء ومهما جعلنا في بعض الأحيان نستهدف للحيرة تارة، والشك في قيمة ذلك الماضي أخرى؛ فإن عمليات الاكتشاف لا تقل عن عمليات الإيجاد اجهادا لا يقوى على تحمله إلا الذي اطمأن لعمله، وآمن بنجاحه.

فإن ماضي المغرب مطمور في الخزائن، وملفوف بين الأوراق، ومتوقف على فكر مغربي ثاقب، يبحث ويحلل لينتج ويقارن؛ فإذا أنت أمام مدينة فاس ومدينة مراكش كما أنت أمام مدينة بغداد أو قرطبة.

فليست المدنية المغربية تقل في أي مظهر من مظاهر التمدين عن المدنيات الإسلامية الأخرى إن لم تفق بعضها.

ففي الماضي المغربي فكر مغربي وإحساس مغربي خلف إنتاجا يمكن - إذا درس - أن يكون بعثا للحضارة المغربية.

ففي الماضي المغربي فكر مغربي استطاع أن يتصل بالفكر الإسلامي العام ويولد ما يبهر العقول في التشريع والفلسفة والطب والرياضيات ويستنتج في الاجتماعيات ما هو معجزة لمدنية الإسلام.

وفي الماضي المغربي إحساس مغربي استطاع أن يصور الحياة المغربية ويخلد معالمها ببراعة ويسجل خفاياها بقوة.

فلماضي المغرب شعر خالد وموسيقى بارعة وفن معماري مدهش.

وفي ماضي المغرب شخصيات فذة برعت في جميع الميادين المطروقة في تلك الأزمنة؛ ففي الحرب للمغرب أبطال ميامين وغزاة فاتحون، وفي السياسة دهاة مقتدرون وملوك جبابرة، وفي الإصلاح الاجتماعي رجال آمنوا برسالتهم فأثروا على مجرى الحياة المغربية، وخلدوا من الآراء والنظريات ما كان دعامة للحياة المغربية أمدا طويلا.

فمدنية المغرب تحتل مكانا مرموقا بين مدنيات الإسلام، وهى لا تقل عن مدنيات بغداد أو قرطبة، وتفوق مدنيات أمم أخرى من الأمم الإسلامية.

ولكن يعوز هذه المدنية الاكتشاف؛ وعمليات الاكتشاف - كما قلت - لا تقل عن عمليات الإيجاد، أى يجب أن نستعد لكشف الستار عن ماضينا، كما نستعد لتكوين مدنية جديدة، وعندما نبلغ درجة مهمة في المدنية المقبلة، هناك لا غير نكون قد بلغنا درجة مهمة في اكتشاف مدنية المغرب الماضية، إذ لا يكتشف المدنية الماضية إلا المتمدنون الحاضرون.